أعمال موجهة مادة: بيبليوغرافيا النقد الأدبي القديم

الحصة السابعة: كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني

ترجمة لصاحب الكتاب

حازم القرطاجني من أعلام النقد والأدب في الأندلس والمغرب خلال القرن السابع الهجري، هو أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن، اشتهر بنسبته إلى مسقط رأسه فعُرف بالقرطاجنّي (نسبة إلى قرطاجنة) شرق الأندلس سنة 608هـ، قضى طفولته وشبابه في عيش رغد، متنقلا بين قرطاجنة و ُمرسيّة، مقبلا على التعلم، جادّا في الدروس. حفظ القرآن على يد شيوخ من قراء بلده، ووجد من والده خير ملقن، وموجه لمعرفة العربية و قواعدها والإمام بطائفة من قضايا الفقه والعلوم الحديثة. كان كثير التردد على مرسية للأخذ من شيوخها، وهناك درس كثيرا من أمهات الكتب. وكذلك اتجه إلى غرناطة واشبيلية طلبا للعلم.

اهتم حازم بدراسة العلوم اللغوية والشرعية، والعلوم العقلية، فدرس الخطابة، والشعر، والمنطق، وأقبل على مصنفات ابن رشد، وكتب غيره من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا.

استمر المقام بحازم في تونس في ظل الحفصيين، وامتدت حياته بها إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة 684هـ..

تتنوع مؤلفات حازم بين نتاج أدبي، ومصنفات في النحو والبلاغة والنقد. فلقد كلف منذ شبابه بنظم الشعر يرفع به مدائحه إلى الأمير المؤمني الموحدي الرشيد. ثم إلى عدد من رجال البيت الحفصي[1]

وأغلب الظن أ ّن أشعار حازم لم تجمع في ديوان قط. أما عن مصنّفاته النقدية والبلاغية، فقد ترك كتبا منها ما هو مفقود ككتاب " التجنيس"، وكتاب آخر في العروض وعلم القافية، أحال عليه حازم في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" المتوفر في المكتبة العربية.

سبب تأليف الكتاب

يعتبر القرن السابع الهجري القرن الذي امتزجت فيه الثقافتين العربية واليونانية، مما أدى إلى بزوغ مدرسة بلاغية عربية مغربية تأثر روادها بالمنطق الأرسطي "فقد كثرت الحروب الصليبية في هذا العصر، وسقطت الكثير من المدن الأندلسية، واتجه الناس إلى الاهتمام بالحروب

[1]– ينظر، حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ج1، ص45 وما بعدها

المعارك، وأصبح هناك بعد شاسع بين الشاعر والشعر الذي تضاءل جمهوره وقل المقبلون عليه، ، بل أصبح كثير من أنذال العالم يرى أن الشعر مصدر نقص وسفاهة مع أن القدماء القدماء كانوا يرفعون من قيمة الشعر، ويعظمون الشعراء"[1]، فظهر على إثرها علماء حاولوا وضع قواعد جديدة للدرس النقدي والبلاغي، وأبرز هؤلاء حازم القرطاجني الذي وجد في هذا العصر الذي كان يعيش في فوضى الإبداع، فقد صار فيه الشعر مصدر نقص وسفاهة، و أصبح الشعراء يخوضون فيه دون علم به، وضعف الشعر أدى إلى ضعف النقد، وهذا ما جعل حازم القرطاجني يؤلف كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" من أجل رفعهما إلى مستوى النظرية القائمة على أسس صحيحة.

وانعكس هذا على النقد فضعف بضعف ميدانه، لأنه مرتبط بالشعر يتقدم بنهضته ويضعف بضعفه. يقول إحسان عباس:" في فترات الخوف من الضياع يكثر التسجيل والتقييد، ويقل النقد أو يضعف صوته، وتخمد المعارك الأدبية لالتهاء الناس بمعارك تحدد البقاء أو الفناء"[2].

طبع الكتاب

الكتاب من تحقيق وتقديم ، محمد الحبيب الخوجة، كرسالة جامعية، نال به درجة الدكتوراه من جامعة باريس، في حين تم النشر من طرف دار الغرب الإسلامي بتونس سنة 1966، لتتوالى بعد ذلك الطبعات الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة سنة 2014 في بيروت.

مضمون الكتاب ومنهجه

الكتاب مقسمٌ على أربعة أقسام، الأول: مفقود لم يُضمن الكتاب الموجود إلى اليوم والثاني: في المعاني، والثالث : في المباني، والرابع : في الأسلوب.

فصل حازم كل قسم من الكتاب إلى أربعة أبواب أو فصول، سماها مناهج، وكل منهج من هذه المناهج يحتوي على عدة مباحث، فضَّل تسميتها بالمعارف تارة، وبالمعالم تارة أخرى... وقد ذيل هذه المباحث جميعها بملاحظات بلاغية، تكون بمثابة الخلاصة الختامية لجُلِّ الفصول؛ حتى يتدرج في وضع أفكارِه والقارئُ على تمثُّل ووعي جيدينِ لهذه الأفكار.

---

[1]– إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1971،1، ص 494.

[2]– المرجع نفسه، ص ن.

القسم الثاني المخصص للمعاني هو أولَ أقسام الكتاب المثبتة بين دفتيه، وقد تناوَل فيه حازمٌ البحثَ عن المعاني، "والغرض من وراء هذا البحث هو بيانُ ما ترتكز عليهما الصنعتانِ الخطابية والشعرية، وما يحتاج إليه فيهما من أساليب وأذواق، مرجعها علم البيان وعلم البديع، وهذا الدرس للمعاني، كما يعرضه علينا حازم، عظيمُ الأهمية لمعرفة الصناعة الشعرية، وبه تظهرُ أصالتُه في ميدانَيِ البلاغة والشعر.

وقد ابتدأ الحديث في المنهج الأول من هذا القسم بتحديد ماهية المعاني، وأنحاء وجودها ومواقعها، لينتقل بعد ذلك للحديث عن طرق اجتلاب المعاني، وكيفية التئامها، وبناء بعضها على بعض حتى توافق النفوس.

أما في جانب الاستدلالات وأنواعها في الشعر العربي، فإن الحديث عن هذا الجانب قاده إلى عَقْد نوعين من المقارنة: الأولى بين الشعر العربي والإغريقي، لينتهي إلى "أن الشعر العربي يفضُلُ الشعر اليوناني في غرض الوصف، وفي وجوه كثيرة من الصناعة"، والثانية بين فنينِ من فنون القول، وعِلمين من العلوم الأدبية، ألا وهما الشعر والخطابة.

أما في جانب الاستدلالات وأنواعها في الشعر العربي، فإن الحديث عن هذا الجانب قاده إلى عَقْد نوعين من المقارنة: الأولى بين الشعر العربي والإغريقي، لينتهي إلى "أن الشعر العربي يفضُلُ الشعر اليوناني في غرض الوصف، وفي وجوه كثيرة من الصناعة"، والثانية بين فنينِ من فنون القول، وعِلمين من العلوم الأدبية، ألا وهما الشعر والخطابة.

ما القسم الأخير من الكتاب، الذي – كما سبقت الإشارة – جاء في الأسلوب، فقد قسم هو الآخر إلى أربعة مناهج متفاوتة فيما بينها من حيث القِصَر والطول، وكل واحد من هذه المناهج يضم عددًا من المعارف والمعالم، وقد تعرَّض حازم في هذا القسم إلى "الطرق الشعرية، ومآخذ الشعراء في كل لون من ألوان النظم، بحسب ما تقتضيه أحوال الكلام"؛ حيث نجده يميز بين الشعر الجدي والشعر الهزلي، مع ذِكر خصائصِ كل صنف منهما،

الأصول الأدبية والفلسفية للكتاب

ويذهب الدكتور جابر عصفور إلى توضيح إفادة حازم من الفلاسفة المسلمين بقوله:" لقد أفاد حازم من الفلاسفة كل الإفادة، واستطاع أن يتجاوز أقرانه وأسلافه، ويصل إلى ما لم يصلوا إليه، ويعالج مشاكل لها ثقلها وأهميتها في تاريخ النظرية الشعرية، بل إنه ينفرد بميزة هامة، هي محاولة إقامة توازن بين العناصر الأربعة التي لا يمكن اكتمال أية نظرية في الشعر دونها أعني:

العالم الخارجي، والمبدع، والنص، والمتلقي"[1] ، فمن خلال ما سلف يتضح لنا عودة حازم للتراث ألأرسطي ونقله عنه في الكثير من ألأمور.

يصف الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة منهاج البلغاء وسراج ألأدباء بقوله:" واليوم يمكننا أن نضع حدا للشك والغموض السابقين بالوقوف على كتاب حازم القرطاجني الذي يمثل في باب نقد الشعر من جهات كثيرة أهمية بالغة، ويصور بغاية الوضوح...التأثيرات اليونانية في صناعة النقد عند العرب"[2].

لقد أقر الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة على اطلاع حازم على التراث الأرسطي من خلال الفارابي وابن سينا، فقال:"فحازم من غير شك قد استفاد كثيرا من مطالعته لكتاب فن الشعر للمعلم الأول... ومما يدل على انفعاله هذا بالطريقة الهيلينية في نقد الشعر، استشهاده المتكرر في هذا المنهج بنصوص من كلام أرسطو في فن الشعر، اعتمد فيها مرتين تلخيص الفارابي، وأربعة عشر مرة ترجمة ابن سينا في الشفاء"[3].

وهذا لا يعني أن حازم لم يلجأ إلى الكتب العربية لمن سبقوه، :لقد عاد حازم إلى النقاد الأوائل واستقى منهم الكثير من الأفكار، فقد أخذ عن ثالثة كتب هي: كتاب "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي، وكتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، وأخذه عن هذين الكتابين كان مباشرا، أما الكتاب الآخر، فهو نقد الشعر لقدامة بن جعفر الذي نهل منه عن طريق الكتابين السابقين.

خاتمة

في الختام يجب أن نسجِّل أن حازمًا قد "سلك في كتابه طريقة منطقية؛ إذ بدأ حديثه عن المعاني وتحليلها، ودرس طرق التصوير لها، و كيفيات إحضارها في الذهن منتظمة، لينتهي إلى نقد الشعراء وتقديم آثارهم، وهو في الفصل الأخير من كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء أعلن عن خطته في كتاله، وصورها لنا بقوله: قد تكلمنا في هذه الصناعة (الصناعة الشعرية) في جملة مقنعة، وبقيت أشياءُ لا يمكن تتبعها؛ لكثرة تشعُّبها، وتعذُّر استقصائها."

---

[1]– جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 1982، ص، 57.

[2]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج ألأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة (مقدمة التحقيق)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص 32..

[3]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج ألأدباء، ص98–99 (مقدمة التحقيق).

إن كتاب المنهاج لحازم القرطاجني لكتابٌ جديرٌ بالقراءة والدراسة العميقتين؛ لأنه يشكل قيمة ما وصل إليه الدرس البلاغي والنقدي العربي شرقًا وغربًا، كما يعد الكتاب على رأس المؤلفات البلاغية التي استطاعت أن تمزج بين الدرس البلاغي اليوناني والعربي دون تغييب أحدهما في الآخر، ولنا في آراء الزركشي وابن والجرجاني والزمخشري خيرُ دليل على ذلك.

لقد أصبحت البلاغة مع حازم درسًا خصبًا للدراسة؛ لأنها أصبحت عِلمًا كليًّا، تحتوي على جميع علوم اللسان وفنونه، فبعد أن كانت البلاغة مجرد مباحثَ بلاغية، وتحولها فيما بعد إلى درجة الصياغة العلمية مرتبطة بعلوم شتى، منها: النَّحْو والصرف والنقد الأدبي، وبالإعجاز القرآني فيما بعد – أصبحت اليوم أكثرَ شمولية وكلية، تحتوي على جميع مراحل البلاغة عبر امتدادها التاريخي، وتغيرها من مرحلة لأخرى